آيات الصبح في القرآن الكريم دراسة موضوعية

م.م. خليل محمود حسين النشمة(*)

ملخص البحث

يتناول البحث الموسوم ﴿آيات الصبح في القرآن الكريم دراسة موضوعية ﴾ في ذكر الآيات التي وردت في سياق النص القرآني والتي تتناول الألفاظ المتعلقة بالصبح وعلاقتها مع بعضها من خلال ذكر أقوال المفسرين وقسم البحث إلى مبحثين.

الأول تناول القسم في القرآن الكريم لألفاظ الصبح وفضل التسبيح فيه مع بيان فضل وقت الصبح وتناول المبحث الثاني تحت مطالب عدة منها نزول العقاب من الله بالكفار وأفضل الأوقات في الإغارة على الأعداء ثم الخاتمة والمصادر.

Subjective study in the morning Ayahs in Holy Quran

Asst. Le. Khalil Mahmood Al. Namsha

ABSTRACT

The research entitled ﴿Subjective study in the morning Ayahs in Holy Quran ﴾. Briefs the Ayat in holy Quran that concentrate on dawn terms and the relation between them through the sayings of explainer. The research is divided into two parts.

The first deals with the term dawn as mentioned in holy Quran and the great status of mentioning God as well as the time of dawn.

The second part covers many aspect like the time of punishing disbelievers the best time to conquer your enemies as well as finale and references.

(*) مدرس مساعد في قسم التربية الإسلامية،كلية التربية الأساسية،جامعة الموصل.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين واشرف المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين

إن هذا البحث هو جهد متواضع في طريق بحوث تعنى بالألفاظ المؤتلفة في القرآن الكريم تكشف النّقاب عن دلالة الكلمة الواحدة في السياق القرآني وعلاقتها مع مثيلاتها في الآيات الأخرى من خلال البحث عن الأصل اللغوي والقاسم المشترك الذي يجمع بين هذه الكلمة ومعانيها المتعددة في سياقها، وبهذا يظهر جليّاً هذا المسْلَك الرباني النوراني الذي يربط آيات القرآن المنتشرة في سور متفرقة وسياقات متعددة.

وسبب اختياري لهذا البحث هو إنني لاحظت هذا المسلك الرباني في ألفاظ الصبح فأردت أن القي عليه الضوء وأزيده بيانا ووضوحا ، وان ألتقط الجواهر والدرر الموجودة في هذا البحر الزاخر ، ثم لتعلق الصبح بأمور منها :

- صلاة الصبح التي ستأتي أهميتها في ثنايا البحث .
- نزول العقوبات الإلهية في هذا الوقت سواء بأيدي عباده أو بالجوائح السماوية للوقوف على أسباب تلك العقوبات وأخذ العظة والعبرة .

هذا وقد قسمت آيات الصبح إلى مبحثين :

المبحث الأول : فضل التسبيح أول النهار والقسم به ، وقد قسمته إلى مطلبين :

المطلب الأول : فضل التسبيح أول النهار، وبّينتُ فيه فضل وقت الصبح من الناحية الشرعية والعلمية .

المطلب الثاني :القسم بالصبح ، وبّينتُ فيه وجْه القسم بالصبح مطلقا وحين تنفسه وإسفاره.

المبحث الثاني: اغتنام فرصة الصبح في الإغارة على الأعداء وإنزال العقاب بهم.

وقمت بتقسيم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مبررات إنزال العقاب في هذا الوقت : وبّينتُ فيه دوافع اختيار هذا الوقت لذلك .

المطلب الثاني : الحث على الجهاد والإغارة في هذا الوقت .

وتكلمت فيه عن المغيرات وحددت معناها والمراد منها : خيل الجهاد أم ابل الهدي؟ ، ثم تكلمت عن قوم لوط وحددت موعد نزول العقاب بهم .

المطلب الثالث : نموذج من العقوبات الإلهية في وقت الصبح :

وقد سلطت الضوء في هذا المطلب على ثلاث آيات من سورة القلم وبينت السبب الراجح للعقوبة التي نزلت عليهم.

وقد كان منهجنا في البحث أننا نأخذ كلمة الصبح ونحدد معناها في سياقها ودوافع اختيار هذا المعنى ، ثم نبين المعاني المتولدة منها واللوازم المتعلق بها والمستفادة منها .

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من مدّ لي يد العون وقدم لي مصدراً في انجاز هذا البحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

فضل التسبيح أول النهار والقسم به

الآيات: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿ سورة الروم: الآية 17 ﴾

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ ﴿ سورة المدثر: الآية 34 ﴾

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ﴿ سورة التكوير: الآية 18 ﴾

المطلب الأول

فضل التسبيح أول النهار

إنّ فضل وقتِ الصبح ظاهر في الكتاب والسُّنَّة، فالله تعالى أقسم بالصبح ومرادفاته، وهذا سيأتي إن شاء الله تعالى.

فقد أمر الله تعالى بإقامة صلاة الفجر وذكر أنها مشهودة من الملائكة فقال الله تعالى:﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ﴿ سورة الإسراء: الآية 78 ﴾

مشهوداً: أي تشهده ملائكة الليل والنهار [1] لأن الملائكة تتعاقب على بني آدم، فملائكة تكون بالليل ثم يحلّ محلها ملائكة النهار، وموعد التعاقب: صلاة الفجر وصلاة العصر، ففي الحديث:- "يتعاقبون فيكم ملائكة الليل والنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون:- تركناهم وهم يصلون واتيناهم وهم يصلون"[2]

والنبي ﴿ ﷺ ﴾ أشار إلى فضل وقت الصبح بصيغ وأشكال شتى فمن ذلك:-

١)يخبر أن إقامة صلاة الصبح تعْدلُ قيام ليلة

قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ "من صلى الفجر في جماعة فكأنما قام ليله" [3] وسواء قلنا إن صلاة الصبح أسبغت على وقت الصبح هذا الفضل أو العكس فالنتيجة واحدة وهي:- أن وقت الصبح وقت ذو فضل عظيم.

2) ينبّه أن نافلة صلاة الفجر خير من الدنيا وما فيها

قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾: "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها" [4] ثم قال: "لا تتركوها ولو طردتكم الخيل" [5] والمقصود بـ"ركعتي الفجر" هنا سُنّة الفجر القبلية، لأن الفقهاء وشُرّاح الحديث يْذكرون الحديث في باب النوافل والسُنن [6] والمقصود بـ"طردتكم الخيل" أي خيل العدو، بل صلّوهما ركباناً ومُشاة بالإيماء ولو لغير القبلة، وهذا اعتناء عظيم بركعتي الفجر وحث على شدة الحرص عليهما حَضَراً وسفراً وأمناً وخوفاً[7]

3) ويكشف النّقاب عن أمر مهم وهو أن من صلى الصبح فهو في "عهد الله وأمانِهِ في الدنيا والآخرة"[8] قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾: "من صلى الصبح فهو في ذمّة الله فلا يطْلبنّكم الله في ذمته بشيء فَيُدْرِكَهُ فيكُبهُ في نار جهنم" [9] وإنما خُصّ الصبح وصلاتُهُ بهذا الفضل، لأنّ فيها كُلفة لا يواظبها إلا خالص الإيمان فاستحقّ الأمان وهذا الوعيد الشديد لمن يتعرض له.

4) ويبيّن فضل هذا الوقت واستثماره[10] فيقول ﴿ ﷺ ﴾:

" من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلّى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامّة تامّة" [11] لهذا وذاك قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾: - "اللهم بارك لأمتي في بكورها"[12]

وفي هذا حثّ على استثمار هذا الوقت في النافع والمفيد كطلب العلم أو حفظٍ أو رزق، فمن بكّر في ذلك وغيره وَجَدَ خيراً كثيراً، لهذا مُحقت البركة في كثير من أعمال الناس وأوقاتهم بسبب إضاعة البكور في زماننا هذا.

روي "إن النبي ﴿ ﷺ ﴾ كان إذا بعث جيشاً أو سرية بعثهم أوّل النهار، وكان صخر رجلاً تاجراً فكان يبعث غلمانه من أول النهار فكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضعه"[13].

وسبب ذلك –والله أعلم– أن الصبح وصلاتَهُ أول اليوم وبدايته، والبدايات لها أثر كبير على الخواتم، فكلما كانت البداية موفّقة كانت الخاتمة مسدّدة.

وفي مسالة الرزق خاصة، يستحب البكور وعدم التثاقل والكسل حتى وإنْ لم يكن عند الإنسان أمر يشغله، فقد رأى عبد الله بن عباس ﷺ، ابناً له نائماً نومه الضحى فقال له: - "قُمْ، أتنام في الساعة التي تُقْسَمُ فيها الأرزاق"؟[14] بل لقد أشار القرآن إلى أن رزق أهل الجنة يكون في وقت الفجر والعصر (15)، قال الله تعالى في معرض الحديث عن الجنة وأهلها:- ﴿ **وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ ﴿ سورة مريم: الآية 62 ﴾.

أعطاهم الله الرزق في هذين الوقتين لأنهم ثابروا على ذكره في الدنيا في البكرة والعشي، قال الله تعالى:- ﴿ **يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿36﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾ ﴿ سورة النور: الآية 36-37 ﴾.

هذا فضلاً عن الفوائد الصحية التي يجنيها المستيقظ صباحاً، فمن ذلك:- كثرة نسبة غاز الأوزون (O_3) في الصبح، ثم تقل تدريجياً حتى طلوع الشمس فينعدم، ولهذا الغاز تأثير مفيد للجهاز العصبي، ومنشط للعمل الفكري والعضلي.

ناهيك عن اللذة والنشوة التي يشعر بها الإنسان وهو يستنشق ريح الصَّبا[16].

لهذا وذاك، جاء النهي عن النوم بعد صلاة الفجر، ففي الحديث "نوُم أول النهار خُرْق، وأوسطه خَلْق، وآخره حُمْق"[17].

لهذه الفضائل وغيرها حثّ الله تعالى على التسبيح وقت الصبح واقسم الله تعالى بالصبح ومرادفاته.

ففي حثّ الله تعالى على التسبيح وقت الصبح يقول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿سورة الروم: الآية 17﴾. والفاء هنا استئنافية للتعليل [18] وهي تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها[19].

فالآيات كانت تتحدث عن التكذيب بآيات الله واتخاذ الشركاء من دون الله، والتكذيب بلقاء الآخرة، فجاء التسبيح لينزه الله تعالى عن الشركاء وعّما لا يليق به وبموعوده وبآياته.

ومطلق التسبيح يأتي على معنيين:-

1) التسبيح هو ذكْر الله تعالى بـ"سبحان الله" ومعناه:- تنزيه الله جلّ ثناؤه من كل سوء[20]

2) الصلاة، فالسُّبْحة هي الصلاة [21] ومما يرجح أنّ المراد بالتسبيح الصلاة، أنّ الصلاة مشتملة على التسبيح، والشيء قد يُسمّى بجزئه.

وقد جاء في القرآن تسمية الصلاة بالتسبيح، في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿سورة الصافات: الآية143﴾ أي: من المصلّين[22].

وإذا كان المقصود بالتسبيح الصلاة، ينصرف ذلك إلى النافلة لا الفريضة[23]

وفي الحديث "لا يسبح بعد العشاء حتى يقوم من جوف الليل" [24] والمراد بالتسبيح هنا: التطوع[25]

لكن يترجح لدينا أن المقصود بالتسبيح هنا في الآية الفريضة، لأُمور:

1) صيغة (سبحان) مصدر قائم مقام فعله الأمر، فهو خبر بمعنى الأمر[26] والأمر ينافي النافلة.

2) تقييد التسبيح بالمساء والصباح، والنافلة أوسع من أنْ تُقيّد. وأمسى وأصبح هنا تامّتين، والمعنى: حين تدخلون في المساء وحين تدخلون في الصباح[27].

3) أمَرَ الله صريحاً بإقامة صلاة الفجر، وعبّر عنها بـ"قرآن الفجر" في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿سورة الإسراء:الآية 78﴾. فكِلْتا الآيتين [الروم، الإسراء] تتحدثان عن أوقات الصلوات الخمس[28].

وكما أن المقصود بـ"قرآن الفجر" صلاة الفجر، كذلك المقصود بـ"حين تصبحون" صلاة الفجر التي تُفعل فجراً، فالفجر والصبح لفظان متقاربان، والقرآن والتسبيح كلاهما ذكْرٌ قُصِدَ بهما الصلاة لاشتمالها عليهما.

وكلمة "حين" من الظروف المبهمة، ويأتي على معانٍ[29]

١) **اللحظة** قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿سورة الواقعة: الآية84﴾

٢) **الساعات** ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿17﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ﴿سورة الروم: الآية 17-18 ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ﴿سورة القصص: الآية15 ﴾ قال ابن كثير: "بين المغرب والعشاء"[30]

٣) **ثلاثة أيام:** ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ ﴿سورة الذاريات: الآية 43 ﴾ قال ابن كثير: "وذلك انهم انتظروا العذاب ثلاثة ايام.."[31]

٤) **ستة أشهر:** ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ﴿سورة ابراهيم: الآية 25 ﴾ نقل ابن كثير أقوالا كثيرة منها: كل ستة أشهر[32].

٥) **أربعون سنة:** ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ ﴿سورة الإنسان: الآية1 ﴾ قال البغوي: "أربعون سنة"[33]

٦) **منتهى الآجال:** ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ﴿سورة البقرة: الآية 36؛ سورة الأعراف : الآية 24 ﴾ قال صاحب الجلالين: " إلى انقضاء آجـالكم"[34] ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

حِينٖ ﴾ ﴿ سورة يونس: الآية98 ﴾ قال البغوي: "وهو وقت انقضاء آجالهم"[35] ﴿وَأَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾ ﴿ سورة النحل: الآية 80 ﴾ قال السيوطي: "يعني الموت، وقيل إلى حين تبلى"[36].

٧) **وقت مبهم:** ﴿ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ ﴾﴿ سورة البقرة: الآية177 ﴾ أي الحرب[37] ووقتها غير معلوم وقد يطول ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾﴿ سورة الصافات: الآية 174 ﴾ هو ابتداء القتال يوم بدر[38] ﴿ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾﴿ سورة يوسف: الآية 35 ﴾ قيل خمس سنوات[39] ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾﴿ سورة ص: الآية88 ﴾ .

المطلب الثاني

القسم بالصبح ومرادفاته

الآيات: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾﴿ سورة المدثر: الآية 31 ﴾ ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ﴿ سورة التكوير: الآية18 ﴾

لقد اهتم القرآن الكريم بالوقت كثيراً، وأظهر فائدته وأهميته، ومما يدلّ على ذلك: – قَسَمُ الله تعالى به، فالله تعالى قد أقسم بأشياء كثيرة في القرآن الكريم، ولا شكّ أن الله تعالى لا يُقسم بشيء إلا إذا كان عظيماً، أو لإظهاره وتمييزه.

والله تعالى قد اقسم بالقران ، (قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ) ﴿ سورة ق: الآية1 ﴾

ونحو ذلك من الأمور العظيمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

واقسم بأجزاء الزمن، وفي ذلك تنبيه على أنه آية كبرى من آيات الله، وتنبيه على عظم نفعه ووجوب استغلاله والإفادة من كل جزء من أجزاءه.

ومن تلك الأجزاء : الصبح والفجر والضحى والشفق والنهار والليل والليالي العشر ويوم القيامة والعمر..

وفي القسم بهذه الوحدات الزمنية تنبيه على الاعتبار بها في الاستدلال على حكمة نظام الكون وبديع قدرته[40].

ولهذا سلك طائفة من العلماء طريق الاستدلال بالزمن على الصانع وهو (كما يقول ابن القيم)– "استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع"[41].

وللتدليل على ذلك يجب إلقاء نظرة على السور القرآنية التي أقسم الله فيها بالزمن ووحداته، عندها سنجد أنها سور مكية، والسور المكية –كما نعلم– تركّز على العقيدة بشكل خاص، ومن ذلك الاستدلال على وجود الخالق الأوحد، من هنا جاء القسم بالزمن في السور المكية، من أجل لَفْت الأنظار اليه باعتباره دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعا على وجود الخالق وعلى بديع حكمته سبحانه في هذا الكون.

آيات القسم بالصبح ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ ﴿ سورة المدثر: الآية 34 ﴾ ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ﴿ سورة التكوير: الآية18 ﴾

الصبح: الفجر أوّل النهار، والصبح لون من الألوان، قالوا: أصله الحُمْرة، وسُمّي الصباح صباحاً لحمرته، كما سُمّي المصباح مصباحاً لحُمْرته، والصباح نور النهار هذا هو الأصل ثم يفرع[42].

والمعنى اللغوي هو المراد من الصبح في الآيتين، لكن يلاحظ فيهما أنّ القسم بالصبح جاء مقيداً بحال إسفاره وحال تنفسه، فما المراد بهذين القيدين؟ وما سّر التقييد بهما؟

قال ابن فارس "السين والفاء والراء، أصل واحد يدلّ على الانكشاف والجلاء، ومن ذلك السّفر سُمّي بذلك لأن الناس ينكشفون عن أماكنهم ولأنه يُسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافياً"[43].

وقال الراغب "السفر: كشف الغطاء، ويختص ذلك بالأعيان نحو: – سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه، والأسفار يختص باللون نحو ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي أشرق لونه ووجهه"[44].

أما التنفس فهو في الحقيقة خروج النَفَس من الحيوان والإنسان، ولكنه استعير هنا لظهور الضياء من خلال الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النَفَس على طريق الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح لازَمَهُ نسيم وروح فجُعل ذلك نَفَساً له عن طريق الاستعارة المكنية: تشبيه الصبح بذي نَفَس مع تشبيه النسيم بالأنفاس(45).

ويفهم مما مرّ إن الليل مدبر والصبح مُقبل...فوجب التوفيق بين عسعسة الليل [التي بمعنى أدْبر(46)] وبين تنفسّ النهار لأن فيه تكراراً واضحاً، وللخروج من هذا الإشكال نقول:

إن معنى "عسعس الليل" أقبل (47) وهذا يزيل التكرار من أساسه. وهناك دفْع آخر وهو: أنّ معنى تنفّس النهار هنا: أي تكامل طلوعه وامتدّ ضوئه حتى يصير نهارا(48).

وهناك توجيه ثالث وهو: أنّ معنى تنفس النهار: أي طال (49) والمقصود من القسم بالصبح في هاتين الآيتين:-

١) التنبيه على النشور والخروج من القبور بعد الموت، بجامع المشابهة بخروج الضوء من الظلام.

٢) ظهور نور الإسلام وغياب ظلام الجاهلية، وانه سينتشر انتشار ضوء النهار، ولا تقوى قوة على الوقوف بوجهه، وأنه سيعمّ الآفاق كما أنّ ضوء النهار لا بدّ قادم، وسينتشر في أرجاء الكون.

٣) في إقبال الليل تنبيه على النعمة التي تغمر الأحياء، ومظنة الراحة والهدوء والسكون بعد الكّد والتعب، وفي تنفس النهار بشرى للأنفس بحياة جديدة تنطلق فيها الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسدّ الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت.

القسم بالفجر: أقسم الله بالفجر في السورة التي سُمّيت به، فقال الله تعالى:

﴿ **وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ ﴿سورة الفجر: الآية1-2 ﴾ والفجر في اللغة: شقّ الشيء شقاً واسعاً، ومنه قيل للصبح فجراً لكونه فجّر الليل (50). واختلف المفسرون في تحديد المراد بالفجر هنا على أقوال:

١) هو الصبح أو الفجر المعروف، وسُمّي فجرا لكونه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم[51]

٢) فجر يوم مخصوص: الأول من ذي الحجة أو يوم النحر أو أوّل يوم من المحرم لأنه منه تنفجر السَّنَةُ[52].

٣) صلاة الفجر[53].

٤) النهار كّله، وعبّر عنه بالفجر لأنه أوّله[54].

٥) وقيل عنى بالفجر: العيون التي تنفجر منها المياه وفيها حياة الخلق، وهذا القول مبني على أصل المعنى اللغوي [55] قال ابن فارس: "الفاء والجيم والراء: أصل واحد وهو التفتح في الشيء...ثم قال: ومنه انفجر الماء انفجاراً: – تفّتح، والفجرة:– موضع تفتح الماء، ومن الباب:– المفاجرة: لانفجار الماء فيها"[56]

وهذا التأويل الأخير ضعيف، والراجح ان المقصود بالفجر: – أوّل وقت النهار بدليل: –

١) قرينة السياق، فَبَعْد ذكْر الفجر جاء ذكْر الليالي العشر.

٢) كلمة الفجر لم تستعمل في القرآن إلا في معنى أوّل ضوء النهار، قال تعالى:

﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ﴿ سورة البقرة:الآية 187 ﴾

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ﴿ سورة الإسراء: الآية 78 ﴾

﴿ مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ ﴿ سورة النور: الآية 58 ﴾

﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ ﴿ سورة القدر:الآية 5 ﴾

٣) عموم أقوال المفسرين قد أجمعت على إن المقصود بالفجر:– أوّل وقت النهار، وان اختلفوا في تحديد فجر يوم بعينه. قال الإمام ابن القيم: "انه الفجر الذي يعرفه كل واحد ولا يجهله"[57].

أما سرّ القسم بالفجر:

ما يحصل في انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب الرزق، من مشاكلة نشور الموتى من قبورهم وفي ذلك عبرة لمن تأمل[58]

القسم بالضحى:

﴿ وَالضُّحَى ﴿ 1 ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ ﴿ سورة الضحى: الآية 1-2 ﴾ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ سورة الشمس: الآية1 ﴾

الضحى: انبساط الشمس وامتداد النهار، ويُطلق ويُراد به الوقت من طلوع الشمس إلى أن يرتفع النهار وتبيض الشمس[59]

ولأهل التفسير في المراد بالضحى في سورة الضحى، قولان[60]

الأول: أن المراد به وقت الضحى، والذي يمتد من طلوع الشمس إلى ارتفاع النهار.

الثاني: أنه يعني النهار كله، واحتج أصحاب هذا الوجه بان الضحى جُعل في مقابلة الليل كله.

والصحيح هو الأول، وهو ما يراه الأكثرون[61].

أما القول بأنه يعني الليل كله فغير وجيه، والاحتجاج على ذلك بأنه جُعل في مقابلة الليل كله غير صحيح، وذلك لأنه جُعل في مقابلة الليل في حال سجوه أي في حال استقرار الظلام وسكون الناس فيه.

ولا ريب أن سجو الليل هو جزء من الليل لا كلّه فهو بمنزلة الضحى من النهار ويمكن الاستئناس في ذلك بوقت صلاة الضحى فإن وقتها لا يكون بعد الزوال، مّما يؤكد ضعف القول بأنّ الضحى يمتد ليشمل النهار كله.

أما قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ سورة الشمس: الآية 1 ﴾ فمن المفسرين من قال: بأنّ ضحاها هو ضوئها[62] وقال بعضهم: حّرها[63] وقال آخرون النهار كله[64].

والراجحَ "والله اعلمَ" أن يكون المقسم به هو وقت الضحى كذلك، أما القول بان المراد به النهار كله فقد بّينتُ ضعفه.

وأما القول بان ضحاها يعني ضوئها أو حّرها، فهما أمران متلازمان فمتى اشتد حّرها اشتدّ ضوئها وبالعكس، وهذان المعْنيان موجودان في وقت الضحى.

أما مناسبة القسم بالضحى في هذا السياق فيظهر منها رونقاً في الأسلوب وجلالة في المعنى، لان في ذلك مطابقة بين نور الضحى ونور الوحي، فنور الضحى جاء بعد ظلام الليل،

ونور الوحي جاء بعد احتباس عن رسول الله ﷺ، حتى قال أعدائه: قلى محمدا ربُّهُ، "فاقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه ثم إن فالق ظلمة الليل بضوء النهار هو الذي فَلَق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة"(65).

المبحث الثاني

اغتنام الصبح في الإغارة على الأعداء، وإنزال العقاب بهم

الآيات: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ﴿ سورة العاديات: الآية 3 ﴾

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ﴿ سورة هود: الآية81 ﴾

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية 17 ﴾

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية20-21 ﴾

المطلب الأول

مبررات إنزال العقاب في هذا الوقت :

إن استقراء التنزيل المحكم يكشف عن معنى بديع في هذا المجال وهو:-

توقيت العذاب والهلاك والإغارة بالصبح، وقد أشار القرآن الى ذلك في مناسبات متعددة:-

قال الله تعالى عن ثمود قوم صالح ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

﴿ سورة الأعراف: الآية 78 ﴾

وقال عن مدين قوم شعيب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

﴿ سورة العنكبوت: الآية37 ﴾

ويجوز أن تكون (أصبح) هنا هي التامة ، أي : دخلوا في وقت الصبح (66) ، ويقال : أصابهم العذاب بكورة (67) .

وقد يعبّر بالشروق عن المعنى ذاته:-

قال الله تعالى عن قوم لوط ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿ سورة الحجر: الآية 73 ﴾

قال القرطبي : أي وقت شروق الشمس ، ثم قال : وقيل : أراد شروق الفجر ، وقيل : أول العذاب كان عند الصبح وامتد إلى شروق الشمس فكان تمام الهلاك عند ذلك ، والله اعلم . (68) .

وقال عن فرعون وجنوده ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ ﴿ سورة الشعراء: الآية60 ﴾

ومعنى (مشرقين) حين أشرقت الشمس بالشعاع أو حين أشرقت الأرض بالضياء .(69)

وهذا يجعلنا نقول مطمئنين: إن إهلاك أعداء الله يكون ما بين السحر وطلوع الشمس ودوافع اختيار هذا الوقت هي:-

١) إن الإنسان بفطرته يخشى من الليل فهو يتوقع المكروه فيه، لأنّ ظلامه ستْر مساعد للأعداء، لذا دَفَعَهُ هذا التوجّس إلى اتخاذ العسس والحرس، وإحكام إغلاق النوافذ والأبواب، فإذا توهم ظهور ضوء النهار يضع نهاية التوجس والترقّب، ويزيد شعوره بالطمأنينة والأمن، فيركن الى الراحة والسكون، فاختاره الله للإهلاك لتحقيق عُنصر المباغتة، وصدق الله إذ يقول ﴿ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** ﴾ ﴿ سورة الحشر: الآية 2 ﴾.

٢) في وقت الصباح يكون كل الأعداء حاضرين مجتمعين.

٣) هذا الوقت بالذات هو الحدّ الفاصل بين الليل والنهار، فليس هو ليلاً محْضاً كما انه ليس نهاراً محْضاً، والناسُ لا يغيرون ليلاً لأنهم لا يبصرون شيئاً، ولا نهارا لان العدوّ مستعدّ للمدافعة والمحاربة، أما هذا الوقت فهو وقت تُرى فيه الأشياء مع إن العدو غافل.

هذه هي الملامح العامة لاختيار الصبح عقاباً للأعداء، سواء في نزول العقاب من الله، أو الإغراء بإنزاله في هذا الوقت المحدد.

المطلب الثاني

الحث على الجهاد والإغارة في هذا الوقت

الآيات: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ﴿ سورة العاديات: الآية 3 ﴾

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ﴿ سورة هود: الآية81 ﴾

أما بالنسبة للمغيرات ، فقد حصل خلاف شاسع وطويل حول "المغيرات" هل هنّ خيل الجهاد او إبل الهدي؟ والراجح أن المقصود بها خيل الجهاد وذلك للاعتبارات الآتية:-

١) وصف "الصبح"[70] ووري النار بالحوافر وبالحصا[71] هذه أوصاف للجري السريع، والإفاضة من عرفات إلى مزدلفة لا تحتمل هذا العدْو، بل ليس هو فيها بمحمود، لان النبي ﴿ ﷺ ﴾ كان ينادي: "السكينة، السكينة"[72] ولو وُجد العدْو ما كان موضع تعظيم وتفخيم.

٢) المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب كما قال بشار:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[73]

أي لشدة الكرّ والفرّ

٣) تعقيب (فوسطن) بالفاء بعد "المغيرات" وهي تدلّ على الترتيب والتعقيب ف إن كان المقصود بـ"جمع" هي مزدلفة، فمزدلفة يؤتى إليها ليلاً ، فكيف يقرن صبحاً ويتوسطن المزدلفة ليلاً [74] فكيف تغير وتنطلق صبحا ثم تتوسط مزدلفة ليلا ؟ .

أما وجْه القسم بخيل الجهاد في هذا الموضع فمن وجوه:-

١. الخيل خلْق من خلق الله، فوجب التفكير في هذا المخلوق ووجه الإعجاز فيه.

٢. تعريض بالإنسان الجاحد كأنه تعالى يقول: إني سخرت لك مثْلَ هذا وأنت متمرد عن طاعتي!

٣. الترغيب بالجهاد في سبيل الله، كأنه تعالى يقول: اني جعلت خيل الجهاد مُقْسَماً بها فكيف أُضيع عملك؟

أما بالنسبة للآية الثانية فقوم لوط أُهلكوا صباحاً بدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ ﴿ سورة الحجر: الآية 66 ﴾

وزاد ذلك وضوحاً في آية أخرى إن العذاب وقع عليهم وقت الإشراق وهو وقت طلوع الشمس: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿ سورة الحجر: الآية 73 ﴾

وجملة "إن موعدهم الصبح" ﴿ سورة هود: الآية81 ﴾ مستأنفة ابتدائية قُطعت عن التي قبلها اهتماماً وتهويلاً[75]

والموعد:- وقت الوعد، والوعد أعمّ من الوعيد، فيُطلق على تعيين الشر في المستقبل.

والمراد بالوعد هنا:- موعد العذاب الذي عَلِمَهُ لوط عليه السلام إما بوحي سابق، وإما بقرينة الحال، وإما بإخبار من الملائكة في ذلك المقام، طوته الآية هنا إيجازاً، وبهذه الاعتبارات صحّ تعريف الوعد بالإضافة إلى ضميرهم[76].

والموعد للزمان قطعاً وان كانت تُطلق عليه، وعلى المكان، وعلى المصدر، كما في قوله تعالى:- ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ ﴿ سورة طه: الآية59 ﴾

وقد اختلف المفسرون في كلمة "موعد" ﴿ في سورة طه: الآية 25 ﴾ ما بين الزمان والمكان والمصدر[77] ومن استعمالها في المكان[78] قوله تعالى:- ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ سورة الحجر :الآية 43 ﴾

وفي الصباح حصل الموعد ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ ﴿ سورة هود: الآية 82 ﴾ ومكان إهلاكهم هو البحر الميت، وهو المكان الذي كانوا يسكنونه، والمطلوب هو الاعتبار والاتعاظ من حالهم عند زيارة ذلك المكان أو المرور به، والله تعالى يقول:- ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿137﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ سورة الصافات: الآية 137-138﴾

وثبت عن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال:- "لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين ألا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أنْ يصيبكم مثل ما أصابهم"[79]

وهذا البكاء هو إما شفقة عليهم أو خوفاً من حلول مثل ذلك بالمارّ [80] وفيه دليل إن ديار هؤلاء لا تتخذ مسكناً ووطناً لأنه لا يكون دهره باكياً أبداً وقد نهى أن يدخلها إلا هكذا[81].

المطلب الثالث

نموذج من العقوبات الإلهية في وقت الصبح

الآيات:- ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية 17 ﴾

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية20-21 ﴾

إن قصة أصحاب الجنة في سورة القلم ذات دلالات متشعبة تُنبئ عن دقة اختيار الكلمات فيها، وصياغة وسبك عباراتها وجُملها.

تبدأ هذه القصة..."برجل كان إذا أراد أن يصرم النخل اجتمع هناك مساكين كثيرة، وقد جعل له علامة، فكل ثمرة تسقط وراء العلامات كانت للمساكين، فكانوا يأخذون الثمر قدْر ما يتزودون به أياماً كثيرة فلما مات الرجل قال بنوه فيما بينهم:- إنّ أبانا كان عيالُهُ أقلّ، وحاجتُهُ أقلّ، فصار عيالنا اكثر وحاجتنا اكثر، فخرجوا بالليل كي لا يشعر بهم المساكين فاحترقت نخلهم في تلك الليلة"[82].

هؤلاء الأبناء خرجوا مصبحين لقطع الثمر، وقيل بل خرجوا ليلاً [83] ولا تعارض بين القولين لأنهم خرجوا أول الصباح وقد بقيت من الليل ظلمة[84].

والقرآن لا يذكر متى خرجوا تحديداً، إنما يذكر وقت قطع الثمر، واغلب الظن أن القطع إنْ كان حصل مع طلائع الصباح فان الخروج كان قد حصل قبل ذلك، أي أنهم قد خرجوا ليلاً.

وإنما خرجوا ليلاً، وقطعوا المحصول وقد بقيتْ ظلمة، لتحقيق هدفين هما:-

١) خرجوا ليلاً حتى لا يراهم الفقراء، فيعلمون بوقت الجذاذ، وقد اجتهدوا في إخفاء أنفسهم، فهم لا يتكلّمون، وإذا تكلموا همسوا همساً خفيفاً [85] وهذا من دلالة كلمة "يتخافتون" ﴿ سورة القلم:الآية 23 ﴾

٢) قطعوا المحصول في ذلك الوقت قبل انتشار الفقراء[86] ليحرموهم من حصّتهم.

ولم تأتِ كلمة "مصبحين" لتحديد الصباح وقتاً لقطع الثمر، بل المعنى:- داخلين في وقت الصباح، فهو كقوله تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿ سورة الصافات: الآية 137 ﴾ وذلك لتحقيق معنى السرّية في الذهاب إلى الجنة(87)

وهؤلاء قد عزموا عزماً أكيداً على هذا الأمر بدليل:

١) دلالة كلمة (حرد) وهي كلمة تدل على:- القصد والغضب والتنحّي (88) ومن خلال هذه الكلمة قد نستطيع استخلاص عدة دلالات تكشف عن نفسية هؤلاء من جهة، واستحقاقهم للعقوبة من جهة أخرى.

فهم قد قصدوا منع هؤلاء الفقراء من حقهم أو نصيبهم الذي فرضه أبوهم لهم.

ثم ان هؤلاء غاضبون حَنِقُون كارهون حاقدون على الفقراء، بل أنهم قد بلغوا في الغضب أبعد غاية(89).

وتعبّر كلمة "حرد" على لؤم وبخل (90) وتعّبر عن نفسية انعزالية، يقال:- "نزل فلان حريداً أي متنحّياً"(91).

2) قَسَمُهم بالله تعالى: " إذ أقسموا ليصر منها مصبحين" ﴿ سورة القلم: الآية 17 ﴾ فكانت النتيجة لهذا الإصرار على النية الفاسدة والقصد السيئ أنْ عاقبهم الله تعالى بأنْ جعل جّنتهم الغَنَّاء كالصريم.

لكن هل وقعت هذه العقوبة نتيجة لمنع الزكاة، أو لمنعهم المتساقط او نتيجة استثناءهم؟

بالنسبة للاستثناء مختلف في معناه بين:- أنهم لا يستثنون من الثمرة شيئاً للمساكين، أي اقسموا ليصرمن جميع الثمر ولا يتركون منه شيئاً، وقيل معناه: لا يستثنون لإيمانهم بأنْ يقولوا: إنْ شاء الله(92).

والاستثناء بالمعنى الأخير له أهمية بلا شك، ففيه التأدب مع الله تعالى حيث قال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ﴿ سورة الكهف: الآية23-24 ﴾ ففيه نهي عن ان يقول العبد في الأمور المستقبلية: "إني فاعل ذلك غدا" من دون أن يقرنه بمشيئة الله، لان

في ذلك ردّ الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً وذلك محذور ومحظور، محذور لأنّ فيه غروراً بالنفس كأنّ ما عزم على فعله لا يوجد له عائق، ومحظور لأنّ فيه نوعاً من الشرك، لأن المشيئة كلها لله.

والذي يدلّ على أهمية هذا الاستثناء: إن الله تعالى استثنى في كلامه: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ ﴿ سورة الفتح: الآية 27 ﴾ فالله تعالى استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون.

ومما يدل على أهميته استثناء الأنبياء والصالحين في القرآن كثيراً: كاستثناء إسماعيل (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) ﴿ سورة الصافات: الآية102 ﴾ وموسى (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) ﴿ سورة الكهف: الآية 69 ﴾ ويوسف (وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) ﴿ سورة يوسف: الآية 99 ﴾ عليهم السلام وغيرهم.

أقول:- مع ذلك فالأرجح أن العقوبة التي نزلتْ بهم ليس لتركهم الاستثناء لسببين:

١) إن العقوبة تكون -في سنن الله- من جنس الذنب، وترْك الاستثناء عقوبته: أن يُعّوق ويُنسى لا إهلاك ماله.

٢) إن الله تعالى أخبر ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية 24 ﴾ وهذا هو ذنب العقوبة التام أو جزء منه، وانْ لم يكن لهذا الوصف مدخل في العقوبة لم يكن لذكره فائدة، والله أعلم.

بقي لنا سببان للعقوبة: لأنهم منعوا الفقراء المتساقط من الطعام أو الثمر، أو لأنهم منعوا الزكاة.

في سردنا لقصة هذه الآيات كأنّ السمرقندي [93] يشير إلى أنهم منعوا المتساقط، لأنهم حصدوا المحصول ليلاً أو قريباً منه لكي لا يُرى المتساقط وإلاّ لما كان هناك فرْق بين الليل والنهار في الحصد لو كان هناك قصد آخر.

ونحن نرجح أنهم منعوا الزكاة، لعدّة أمور:-

١) ما كانوا ليمنعوا الفقراء من المتساقط ثم يُعطوا الزكاة، فلما منعوا المتساقط دلّ ذلك على أنهم للزكاة أمنع، فلا منافاة بينهما.

٢) العقوبة بهذا الشكل لا تكون على ترك المستحب من المتساقط، بل تكون على ترك واجب مؤكّد.

٣) اختلاف العلماء –الذي سنذكره– هل تابوا؟ والتوبة لا تكون حتمية إلا عن فعل حرام أو ترك واجب.

٤) الزكاة كانت مفروضة على الأمم التي قبلنا، بدليل:

أ) أوحى الله إلى الأئمة من ذرية إبراهيم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ﴿ سورة الأنبياء: الآية 73 ﴾ .

ب)امتدح الله بها إسماعيل ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ﴿ سورة مريم: الآية 55 ﴾

ج) واخبر عن عيسى انه قال﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿ سورة مريم: الآية31 ﴾

د) وأخذ الميثاق على بني إسرائيل في جُملةٍ من الشرائع، كان أهمّها إيتاء الزكاة وأَمَرَهُم بها ﴿ سورة البقرة: الآية 40-46 ﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ﴿ سورة البقرة: الآية43 ﴾

5) لم يذكر القرآن أن الحصد حصل ليلاً بل ذكر أن النية عُقدت على الصرم صباحاً، ثم إن الحصد –في ذلك الوقت– عملية شاقة وطويلة وتستغرق وقتاً، فما أن يشرعوا فيه قليلاً حتى يبدو ضوء النهار جلياً، إذن الأرجح أنهم منعوا الزكاة، ولا مانع أن نقول أنهم منعوا المتساقط أيضا لشدة لؤمهم وبُخلهم.

وإنما توسعنا في هذه الجزئية لان كلام السمرقندي يُشعر أن نية الصرم كانت ليلا ، ونحن نريد أن نثبت أن نية الصرم كانت صباحا لأن ذلك هو ظاهر الآية .

والعقوبة التي عاقبهم الله بها هي الطائف الذي طاف بها، والنتيجة أنها أصبحت كالصريم.

أما الطائف فهو المشي حول الشيء (94) والطيف كالخطْرة، والطائف كالخاطر (95) من جهة السرعة.

والمعنى أن هذه الجائحة أحاطت بالجنة من كل جانب، ولم تترك منها شيئاً صالحاً، كما تعبّر عن سرعة الأخذ، كأنّه لمحة بصر، فلم تكن هناك فرصة لإنقاذ شيء.

والصريم هو اسم الصبح واسم الليل، لأن كل واحد منها يصرم صاحبه وينصرم عنه(96)

فإنْ أريد به الليل فجنّتهم قد اسودّت (97) واحترقت وصارت كلون الليل، وأنْ أريد به النهار فجنّتهم قد أبيضت كالحصيد. وعلى كلا القولين، فان هذه الجنة قد دُمّرت عن بكرة أبيها ولم يبق فيها خير يُرتجى.

كل هذا وهم لا يدرون . وهذا أيضا من فوائد كلمة طيف . لكنهم ناموا تلك الليلة وقد دبّروا أمراً، وابرم الله أمراً، ناموا تلك الليلة وقد انطوت جوانحهم على نيّة سيئة غاية في السوء، فحصل ما حصل وهم لا يعلمون من الأمر شيئاً، واستيقظوا صباحاً وهم عازمون على نفس النية، بدليل أنهم ما إنِ استيقظوا حتى ﴿ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ ﴿21﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآيتان21-22 ﴾ .

والمقصود من صارمين هنا:- عازمين على ما اتفقوا عليه من قبل (98) فلما وصلوها مع طلائع الفجر وجدوا المأساة، إنها مأساة استحالة النضارة في القطوف الدانية والثمار الزاكية الشهية إلى سواد مُدْلهم لا يُنتفع بشيء منه، بل هو صورة غضب الله ومؤاخذته لهم على كفران النعمة بما اقسموا عليه من منع الخير، فما فعل أصحاب الجنة حيال ذلك؟

لقد تشبث بعضهم بالمنطق التبريري فبحثوا عن أمر خارج عن إرادتهم يُسندون إليه سبب البلاء، فطمأنوا أنفسهم اطمئناناً خادعاً بأنه لم يحصل شيء، فليست هذه جنّتهم، بل هم ضلّوا الطريق ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية 26 ﴾ .

لكنهم لّما تأكدوا أنها جنّتهم، جاء التبرير الآخر الذي يقوم على تنزيه النفس وإلْقاء التبعة على الظروف والقدر ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية 27 ﴾ هنا بدأ أوسطهم وأعقلهم

وأرشدهم بتعريفهم بالسبب الحقيقي لما هم فيه، والطريقة الصحيحة في النظر إلى المحن والمصائب ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ﴿ سورة القلم: الآية 28 ﴾ أي أنّ المشكلة فيكم وأنتم الذين أخطأتم.

وفي الحقيقة أن أخاهم هذا وضع الطريق السليم لما يجب أن يسلكه الإنسان، ولما يجب أن يفسّر به الفشل وعدم تحقيق الأهداف، أو عند نزول الكروب والشدائد أن نرُدّ الأمر إلى عجزنا، والى أنفسنا لا أن نسلك الطريق التي تعفينا من أدنى مسؤولية أو تقصير.

الخاتمة

من خلال التتبع لآيات الصبح في القرآن الكريم نجد أنها قد ذكرت في أكثر من ثلاثين موضعاً واقتصرنا على السياقات الثلاثة لكونها جمعت معظم هذه السياقات التي تضمنها القرآن الكريم.

ولقد خلصنا في عملنا هذا إلى نتائج عدة ، وكان الفضل لله أولاً وآخرا، ومن أهم هذه النتائج:-

١. تبين لنا فضل وقت الصبح والعمل فيه من خلال معرفة فضل صلاة الصبح التي وعاؤها هذا الوقت المبارك .
٢. وجه القسم بالصبح مطلقا دلالة على اهتمام القران بالوقت ، ووجه القسم بالصبح إذا أسفر وإذا تنفس إشارة إلى النشور والى انتشار الإسلام وانحسار الكفر.
٣. دوافع اختيار الصبح فرصة للإغارة على الأعداء ونزول العقاب عليهم ، والكشف عن نفسيات الأعداء.

وهذه النتائج جاءت نتيجة طبيعية من خلال معرفة أصل دلالة اللفظة القرآنية مع التأمل في استخدامها في السياق القرآني مقارنة مع سبب النزول.

هذا وقد قمنا بالإيجاز في كتابة هذا البحث وذلك لأنه موضوع واسع وهذا ما يسمح به المجال.

والله أرجو أن أكون قد وُفقتُ في هذا الجهد المتواضع، والله من وراء القصد.

هوامش البحث

(١) تفسير ابن كثير: 69/3.

(٢) صحيح البخاري: 203/1 كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر رقم الحديث (530) وصحيح مسلم 113/2 ، كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما رقم الحديث (1464) .

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه 365/2 ، كتاب الإمامة في الصلاة وما فيها من السنن مختصرة من كتاب المسند باب فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد رقم الحديث (1473)

(٤) صحيح مسلم: 160/2، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عيهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما رقم الحديث (1727)

(٥) سنن ابي داود 487/1. كتاب التطوع باب في تخفيفهما رقم الحديث (1260) .

(٦) انظر: الاستذكار لابن عبد البر 129/2.

(٧) عون المعبود 97/4.

(٨) تحفة الاحوذي 12/2.

(٩) صحيح مسلم 125/2. كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة

(١٠) اشار الى هذه المبالغة صاحب كتاب: تحفة الاحوذي 158/3 فقال: وصف الحج والعمرة بالتمام اشارة الى المبالغة.

(١١) سنن الترمذي 586/2. كتاب السفر باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس .

(١٢) رواه الإمام احمد بن حنبل في مسنده مسند العشرة المبشرين بالجنة مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه 3 / 432.

(١٣) مسند المكيين 24 / 326.

(١٤) المقاصد الحسنة للسخاوي 418/1.

(١٥) النكت والعيون 3 / 381 حيث قال : (إن العرب إذا أصابت الغداء والعشاء نعمت فأخبرهم الله أن لهم في الجنة غداء وعشاء) وان ـــظر : بحر العلوم 2 / 381 ، وتفسير الخازن 4 / 252 .

(١٦) موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة المطهرة ص914-915.

(١٧) رواه البخاري في الأدب المفرد 425/1 كتاب الآداب العامة باب نوم أخر النهار.

(١٨) الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل 92/9.

(١٩) تفسير أبي السعود 54/7.

(٢٠) معجم مقاييس اللغة 126/3.

(٢١) المصدر نفسه: 126/3.

(٢٢) تفسير ابن كثير 39/7.

(٢٣) معجم مقاييس اللغة 126/3.

(٢٤) صحيح البخاري 548/2 أبواب تقصير الصلاة باب يصلي المغرب ثلاثا في السفر.

(٢٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال 91/3.

(٢٦) تفسير أبي السعود 54/7.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) انظر: تفسير القرطبي 14/14 وتفسير ابن كثير 68/3.

(٢٩) انظر: نزهة الأعين النواظر ص254-257.

(٣٠) تفسير ابن كثير: 225/6

(٣١) تفسير ابن كثير: 286/4

(٣٢) تفسير ابن كثير: 645/2 ، ذكر ابن كثير من الأقوال : غدوا وعشيا ، كل شهر ، كل شهرين ، كل ستة أشهر ، كل سبعة أشهر ، كل سنة .

(٣٣) تفسير البغوي: 289/8

(٣٤) تفسير الجلالين 1 / 9

(٣٥) تفسير البغوي: 151/4

(٣٦) تفسير الدر المنثور 5 / 154

(٣٧) تفسير البحر المحيط: 10/2

(٣٨) الدر المنثور: 139/7.

(٣٩) اللباب في علوم الكتاب: 99/11.

(٤٠) التحرير والتنوير: 387/30.

(٤١) التبيان في أقسام القرآن، ص40.

(٤٢) معجم مقاييس اللغة: 328/3.

(٤٣) معجم مقاييس اللغة: 82/3.

(٤٤) مفردات ألفاظ القرآن: 480/1

(٤٥) انظر: تفسير الزمخشري 697/4. وتفسير ابن عاشور التحرير والتنوير 154/30.

(٤٦) معجم مقاييس اللغة: 43/4

(٤٧) معجم مقاييس اللغة 42/4.

(٤٨) مفردات ألفاظ القرآن 480/1.

(٤٩) النكت والعيون: 217/6.

(٥٠) مفردات ألفاظ القرآن ص562.

(٥١) معجم مقاييس اللغة: 475/4

(٥٢) اللباب في علوم الكتاب: 309/20

(٥٣) تفسير الخازن: 240/7

(٥٤) اللباب في علوم الكتاب: 309/20

(٥٥) المصدر نفسه: 310/20

(٥٦) معجم مقاييس اللغة: 475/4

(٥٧) التبيان في أقسام القرآن ص54.

(٥٨) التفسير الكبير للرازي: 148/11.

(٥٩) لسان العرب مادة ضحا 474/14-475.

(٦٠) انظر: جامع البيان 273/30، الرازي التفسير الكبير 190/11.

(٦١) انظر غرائب القرآن 514/6.

(٦٢) الكشف والبيان: 212/10

(٦٣) المصدر نفسه: 212/10

(٦٤) المصدر نفسه: 212/10

(٦٥) التبيان في أقسام القرآن ص100.

(٦٦) انظر : اللباب في علوم الكتاب 9 / 201

(٦٧) انظر : بحر العلوم 1 / 545 والبحر المحيط 4 / 269 وتفسير البغوي 3 / 252

(٦٨) تفسير القرطبي 10 / 42

(٦٩) النكت والعيون 4 / 173

(٧٠) الصحاح للجوهري:408/2 ، والصبح : حمحمة الخيل عند العدو (النكت والعيون 6 / 324)

(٧١) البحر المديد: 516/8

(٧٢) صحيح مسلم: 39/4 كتاب الحج باب استحباب إدامة الحاج التلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة يوم النحر .

(٧٣) التحرير والتنوير 30/440-4 41.

(٧٤) أضواء البيان: 9/61-63.

(٧٥) التحرير والتنوير 7/254.

(٧٦) المصدر نفسه: 7/254.

(٧٧) انظر: اللباب في علوم الكتاب 13/282.

(٧٨) انظر تفسير القرطبي 11/212.

(٧٩) صحيح البخاري: 1/443 أبواب المساجد باب الحدود كفارات لأهلها.

(٨٠) انظر: شرح السنة 14/362.

(٨١) المصدر نفسه.

(٨٢) بحر العلوم 3/461.

(٨٣) تفسير ابن كثير: 2/221.

(٨٤) زاد المسير 8/335.

(٨٥) انظر: النكت والعيون 4/309.

(٨٦) انظر: تفسير النسفي 4/269.

(٨٧) انظر: تفسير الرازي 30/77.

(٨٨) معجم مقاييس اللغة 2/51.

(٨٩) الفروق اللغوية: 1/182-183.

(٩٠) تهذيب اللغة: 4/240.

(٩١) معجم مقاييس اللغة: 2/52.

(٩٢) انظر: التحرير والتنوير 29/76. والنكت والعيون 6/67.

(٩٣) بحر العلوم: 3/461.

(٩٤) بصائر ذوي التمييز: 1/1061.

(٩٥) إعراب القرآن لابن سيده: 5/167.

(٩٦) انظر: معجم مقاييس اللغة 344/3.

(٩٧) انظر: المصدر نفسه وغريب القرآن للدينوري 479/1.

(٩٨) انظر: معجم مقاييس اللغة 344/3.

المصادر والمراجع

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار عبد القادر الجكني الشنقيطي المتوفى (1393هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1415هـ-1995م.

٢. الاستذكار، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى، 1421-2000، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض.

٣. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1409-1989، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٤. البحر المديد، احمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1423-2002.

٥. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبن حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1422-2001، تحقيق: الشيخ عادل احمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوقي، د.احمد النجولي الجمل.

٦. الجامع لإحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان 1405 هـ – 1985 م

٧. بحر العلوم، ابو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، دار الفكر- بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.

٨. تفسير الماوردي: النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، المحقق: السيد بن عبد المقصود عبد الرحيم.

٩. تفسير النسفي: مدارك التأويل وحقائق التنزيل، عبد الله بن احمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي.

١٠. تفسير فخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الرازي، دار احياء التراث العربي.

١١. تفسير القرآن العظيم، ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى (774هـ)، المحقق: محمود حسن، دار الفكر، الطبعة الجديدة، 1414هـ-1994.

١٢. تفسير الخازن المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1399هـ-1979م.

١٣. تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393هـ)، دار القلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، يناير 1990.

١٤. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية-بيروت.

١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000.

١٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي المتوفى (1393هـ).

١٧. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، ودار الآفاق الجديدة-بيروت.

١٨. الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى ابو عيسى الترمذي السلمي، دار احياء التراث العربي، بيروت، المحقق: احمد محمد شاكر.

١٩. الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة-بيروت، الطبعة الثالثة، 1407-1978، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق.

٢٠. ديوان ذو الرّمّة.

٢١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي– بيروت.

٢٢. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٣. شرح السّنّة، الحسين بن مسعود البغوي، المكتب الإسلامي، دمشق–بيروت، 1403–1983، الطبعة الثانية، تحقيق: شعيب الارناؤوط، محمد زهير الشاويش.

٢٤. صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، المكتب الإسلامي، 1390–1970، تحقيق: د. محمد مصطفى الاعظمي.

٢٥. عون المعبود شرح سنن أبي داؤد، محمد شمس الحق العظيم آبادي ابو الطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1415.

٢٦. غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى (276 هـ)، تحقيق: احمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398هـ– 1978م.

٢٧. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

٢٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

٢٩. الكشف والبيان، أبو إسحاق احمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، 1422هـ–2002م، الطبعة الأولى، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتحقيق: الأستاذ نظير الساعدي.

٣٠. اللباب في علوم الكتاب، ابو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، تحقيق: الشيخ عادل احمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض.

٣١. مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، أبو القاسم، دار القلم، دمشق.

٣٢. معالم التنزيل، محيي السنّة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى (516هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417-1997.

٣٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية- بيروت ، 1413-1993، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي.

٣٤. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.

٣٥. مسند الإمام احمد بن حنبل، احمد بن حنبل، المحقق: شعيب الارناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1420هـ-1999م.

٣٦. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الإمام الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(ت902هـ)، دار الكتاب العربي.

٣٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ-1995م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.